

التصوف الاسلامي

بقلم سليمان فارس النابلسي

تمتة

ماهية الصوفية وبعض عقائدها

إذا مارجنا الى المصادر الصوفية لتفهم حقيقة هذه الطريقة استخلصنا من بين ثنايا السطور بعد إجهاد وكذا أنها إنما تتم بعمل وعمل ، وذلك بقطع عقبات النفس والتزهد عن أخلاقها ورغباتها ومطامعها المادية حتى يتوصل بذلك الى تخليق القلب من غير الله وتخليقه بذكره سبحانه

وأخص خواص هذه الطريقة لا يتوصل اليه بالتلميم والاستقراء والدرس بل يلتصق بالذوق العالى وتبدل الصفات ، إذ أنهم يرون أن الفرق شاسع بين معرفة حدّ الشيء وبين معرفة الشيء نفسه ، كأن يعرف المرء حدّ السكر مثلاً بأنه حارّ يجلس فيها فيأخذ من الشراب الى أن يصيح ثملاً فنشوان فسكران ، وبين أن يكون سكراناً . وكذلك القياس في معرفة حقيقة التصوف من أنه عزوف النفس الكامل عن المادة ، وبين أن يكون متصوفاً زاهداً

يمتدّد الصوفيون أن معرفة الله لا تأتي بالمجادلات العقلية ولا بالنظرات الفلسفية ، ذلك لأن العقل الانساني عاجز عن إدراك كنه الحق المطلق وتفهم صفاته وخواصه بمثل هذه الأشياء ، وإنما تتكون المعرفة في الشهور بطريقة خاصة وعمل مستمر يمكن من رؤية الله تعالى بالقلب لا بالعقل

يسلك الناسك (طريقاً) خاصاً للوصول الى هذه الغاية يكون فيها تهذيبه وتنقية روحه من عوارض الدنيا وزخارفها المادية ، ثم يتدرّج في هذه السبيل ويقطع (مقامات) معينة يصل في نهايتها الى الفناء في الحق ، وهذه المقامات سبعة وهي : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا ، يكسبها لنفسه بنفسه بعد طول الجهد والتهذيب النظم

وقد اختلف المارفون في فهم كنه هذه المقامات وتباينت آراؤهم في تفسيرها على معانيها الظاهرة أو الباطنة ، فالفقر مثلاً

حسب ظاهر المعنى هو ألا يملك التصوف الزاهد شيئاً مادياً ، على حين أن البعض الآخر ذهب الى أبعد من ذلك فاعتقد بأن على التصوف الذي بلغ (مقام) الفقر أن يجرد نفسه من الشعور بالحاجة الى المادة ويقنع من جوارحه التفكير في ضرورتها ، وعندئذ فقط يصبح في مقام الفقير التصوف

وهناك اختلاف آخر ، فالفقير الذي يتمسك بالفقر ويمتدّد اعتقاداً جازماً يتفوق الفقر وماله من فضل على ضرور الغنى طمعاً في مكافأة ربانية ليس متصوفاً حقاً ، ذلك لأنه يحمل مشقة الغاية ويصدف عن المشاعر بالسرات الدنيوية خشية خسران البرية الربانية وأجر الصبر ، وهذا لا يبنى قتيلاً ، بينما أن التصوف الحقيقي لا يترك ماني هذه الحياة الدنيا من ملاذ وممتع لقاء ثواب في الحياة الأخرى ، بل هو يعتمد عنها لما يجده في سلوكه هذا وفي حالته من الجزاء الأوفى . وهكذا نرى أن الاختلاف بين واضح ، الواحد يتخذ الفقر وسيلة للثواب والأجر ، بينما أن الثاني يبتغي الفقر غاية وأمثلاً

١ - عقيدتهم في التوحيد : إن شيوخ هذه الطريقة بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد . فمن تصفّح كلامهم وتأمل في ألفاظهم أتى في مجموعته ما يؤكد له أن هؤلاء القوم عرفوا صفة الخالق فوجدوه ، وشهدوا بقدومه نزهوه عن الحدث والتوحيد هو الحكم بأن الله واحد ، وفي ذلك نفي التقسيم لذاته ونفي التشبيه عن حقه وصفاته ونفي الشريك معه في أفعاله ومخلوقاته . وينقسم الى ثلاثة أقسام : توحيد الحق للحق ، وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد ، والثاني توحيد الله سبحانه للخلق ، وهو حكمه بأن المبد موحّد ، وخلق هو توحيد العبد في قرارة نفسه ، والثالث توحيد الخلق لله وهو علم العبد أن الله تعالى واحد وإخباره عنه بأنه واحد

٢ - في المحبة : المحبة عرفاً هي ميلك الى الشيء بكليتك ، ثم إشارتك إياه على نفسك ومالك وموافقتك له سرّاً وجهراً . وجاء في كتبهم على لسان المولى عز وجل أنه قال : ما تقرب الى عبدي بشيء أحب الى من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، ومن أحببته كنت له سمياً وبصراً ومؤيداً وبدأ

والمحبة على لسان العلماء هي (الارادة) ولكن ليس مراد القوم بالمحبة الارادة ، فان هذه لا تنتم بالقديم . فالمحبة الاسمية للعبد

عليهم إلا الطاعة والأقياد . حتى إذا تطاول الزمن ومرت
السنون ، لم يبد الصوفي الكبير في معزل عن العالم الأجنبي
حول به يعيش عيشة التقشف والزهد ، يطلب الوحدة نفوراً من
مرأى الناس وظلمهم وتكالبهم على المذات والصنائع ، بل أضحى
شيخاً وجيهاً ذا عممة منتظمة وجيئة فضفاضة ، يظهر في المجتمعات
العامة محاطاً بطائفة من مختلف الطبقات من بطانته وأتباعه
والمعجبين به

ففي أوائل القرن الثالث عشر ظهرت فرق الدراويش
كالمديونية والقادرية الجليلية ، اللتين أسسهما عدى الحكري
وعبد القادر الجليلي ، ثم تبع هاتين ظهور الشاذلية والرفاعية
والمولوية ، فالرفاعية تنسب إلى مؤسسها أبي العباس أحمد الرفاعي
المولود في أم عبيدة إحدى قرى الفرات ، وهي بحيا اليوم بقرتين
كبيرتين هما العلوانية والحياوية ، المشهورتين بمحفلة (الدوسة) .
هاتان أشد فرق الدراويش تمصباً وأكثرهم جهلاً وخيالاً

والمولوية الجبلانية يدعون أن عبد القادر الجليلي هو مؤسس
طريقهم ، وهم في أورادهم وأذكارهم لا يفعلون كما يفعل الجياويون
من تقطع الأجساد وغرزها بالأبر والأمواس ، بل يذكرون الله
بتؤدة وهدوء ووضوح

وأما المولوية أو (الدراويش الراقصون) فقد أسسها في المعجم
الشاعر الفارسي المتصوف الشهير جلال الدين الرومي مؤلف
(المتنوى)

على أن المركز اللائق الذي اكتسبته الصوفية في الدين
والعطف الذي تفيأت خلاله ، إنما ظهر بتأثير الغزالي الذي مال
ميلاً كلياً إلى هذه العقيدة بعد أن درس الآراء والمعتقدات
الأخرى . فقد أدخل الغزالي على الشريعة عنصراً جديداً
بمث فيها النشاط بعد أن ظلت زمناً طويلاً في ركود من
جاء الحروب الكلامية المستعرة بين الفلاسفة والدهريين
والتكلميين . ولم يقف أبو حامد عند هذا بل أدخل في الصوفية
الفكرة الأساسية لما (وراء الطبيعة) ، وأخذ المسيات
والمصطلحات التي عهد إليها ابن سينا والفارابي من تعاليم
الأفلاطونية الجديدة وأحلها مكاناً مقيداً في الدين الإسلامي . على
أنه وإن لم يسلك هذه الطريق إلى النهاية ولم يتقيد بسبل هذا
الذهب إلا أنه انبع التصوف العملي . فهو وإن يكن بحث في
الموضوعات والآراء الخيالية النظرية إلا أن علمه وإدراكه قد

هي تخصيصه بانعام خاص كما أن رحمته له هي إرادة الانعام
٣ - التوكل : نجد الصوفيين أكثر ما كانوا تضارياً في الآراء
واختلافاً في الفكر في هذه العقيدة وأشباهاها مما يتعلق بالمادة ، فبينما
نقرأ للروذبادي قوله لرجل صوفي مدّ يده إلى قشرة بطيخ
ليأكل : «لزم السوق فهو أولى لك وأخبر» ، وقول آخر منهم
« إذا قال الفقير بمد خمسة أيام أنا جائع ، فأزموه السوق ومرهوه
بالكسب والعمل » نقرأ لغيره قوله « أقت في الحرم مرة عشرة
أيام ، فأحسست بضعف ، ففرجت إلى الوادي لعلّي أجد شيئاً
يسكن ضمعي ، فلم أجد شيئاً ، فرجعت وقعدت . وبينما أنا
جالس وإذا برجل أعجمي جلس بين يدي ووضع مائدة وقال
هي لك . »

هذا التغالي في التوكل انتظاراً للرزق يأتي عن طريق الرشد
والاحسان هو ما يضع من شأن هذه العقيدة في نفوس الناس ،
إذ أن مثل هذا يورد موارد الفاقات ، فلا تسمو النفس ، ولا
يعظم الشأن

٤ - ومن معتقداتهم الفناء والبقاء . فالفناء سقوط
الأوصاف المذمومة ، والبقاء قيام الصفات المحمودة . يقال فني
عن شمواته إذا بق بنيتته وأخلص في عبوديته ، ومن فني عن
رغبته بق بزهادته

وهم يمتقدون كذلك في التمية والحضور ، فالنية هي للقلب
عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه
من النفحات القدسية . وأما الحضور فقد يكون حاضراً بالحق ،
لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق ، بمعنى أنه يكون كأنه حاضر ،
وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه

ولو أردت أن أعدد هذه المتقدات لطلال في المطال وكنت
منى الأيدي .

تطور الصوفية وطرقها الحديثة

كانت الصوفية في أول عهدها ومبند حياتها صبغة من الدين
بسيطة ، خاصة بجماعة من الرجال التدبنيين نشروها في حلقات
صغيرة من الأصدقاء . ثم أخذت تتدرج وتتماظم ، فكونت
طبقة خاصة ذات مدرسة خاصة ، بقواعد وأنظمة مقررة يتلقاها
البتدئون ممن سبقهم في الأيمان بها . ثم ما لبثت أن قويت شوكة
الرؤساء وكبار الشيوخ ، فأخذوا يسيرون تلامذتهم وأتباعهم
حسب مشيقتهم وأهوائهم دون أن يكون لهؤلاء رأى ، وما

اصطراه إلى أن ينحو منحى آخر ، ذلك أنه جعل العبادة قسماً من الحياة اليومية يمارسها العامة والخاصة على السواء .

الصوفية وثقافة المسلمين

إن محور التصوف هو التجرد عن النفس وما ترتبط به من مادة ، والانصراف الكلي للحب الإلهي . وغاية ذلك أن يمزج العنصر الإلهي الروحي في الإنسان مع (العقل الأول) الذي منه نشأ وإليه يرتقى . هذه الفكرة وإن كانت بعيدة عن ثقافة المسلمين الأولين الذين انطبع في نفوسهم خوف الله والرهبة منه لكنها ليست غريبة تماماً عن العقل الإسلامي

ولقد لاقى التصوف كمالاً في غيرها من المذاهب والآراء الجديدة مقاومة كبيرة فيها عنف وفيها شدة من بعض ثقافة المسلمين . وغالياً بعضهم في ثقافتهم فتمت الصوفيين بأنهم قوم جهلة يتخطون في مهاوى النقي والفساد ، لا يركنون إلى الكتاب والسنة في كل ما يفعلون ، ثم أوغلوا في تهجمهم عليهم فقالوا ما للتصوف إلا إسقاط الجاه وسواد الوجه في الدنيا والآخرة ، وما للتصوفون إلا قوم مراؤون يثسروا من العمل ومالوا إلى الخمول والكسل فكان شأنهم شأن من ينتظر أن تحطه السماء ذهباً وفضة كانت هذه الحركة العدائية ترتكز على ثلاثة أسس :

أولاً : أن الصوفيين بشرى بصلاة ساكنة ، وبهذا مالوا إلى إنقاص شأن الصلوات الخمس الجبرية المفروضة التي هي من أركان الإسلام الخمسة زاعمين أنها من خصائص العامة الذين لم يتعمقوا في المعرفة الروحية . أما هؤلاء الذين ارتقوا إلى أعلى درجات العلم والفلسفة فهم في غنى عنها

ثانياً : أنهم أدخلوا (الذكر) في الدين ، وهو إعادة دأمة لاسم الله تعالى بأوضاع وأشكال متنوعة على نمط لم يعرفه المسلمون المتقدمون ، فهو إذن بدعة (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) ثالثاً : أن كثيراً منهم اعتنقوا مبدأ التوكل مهملين جميع أنواع العمل وألوان التجارة وفي هذا ما فيه من إضعاف شأن الأمة اقتصادياً واجتماعياً . ثم أنهم كانوا يرفضون المساعدات الطبية عند الحاجة ويمشون على الصدقات يتطلبونها من المؤمنين . أنهم ليحدثون في عقول الناس معنى خاصاً لله وللدين

لم يقف الصوفيون أمام تهجمات خصومهم مكتوفي الأيدي ولم يفقدوا رشدهم أمام هذه الحملات الشعواء المبنوثة من كافة النواحي والجماعات ، بل دافعوا عن كياناتهم بحجج قوية وأدلة مبسطة

الكتاب والسنة وأثبتوا فضاهم وعلمهم ، وقالوا إنهم قوم آثروا الله على كل شيء فاصطفاهم من دون الناس كافة لأيقاظ الناس وإطفاء شعلة التشكك والألحاد ، قال الشبلي : « الصوفي منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، بدليل قوله تعالى واصطفيتك لنفسى . قطعه عن كل (غير) ثم قال لن ترانى . » وما استشهادوا به على أنهم وُصِّفوا في الذكر الحكيم بالصدق والخشوع والصبر والتوكل والقنوت والزهد : وهم على اعتقاد أنهم المعتبرون بهذه الأوصاف . ومن كلام النبي (ص) فيهم قوله . « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره »

كلمة ختامية

إن تعاليم الصوفية قد لاءمت العقيدة الفارسية أكثر مما لاءمت العقيدة العربية . ولم يكن تأثيرها في الحياة العربية والأدب العربي خاصة مضارعاً ما كان لها من أثر بين في الأدب الفارسي منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى يومنا هذا

والواقع أن الكثرة المطلقة من شمراء الفرس الجيدين قد انصهروا في بودقة هذه التعاليم فامتزجت بتفكيرهم وخيالهم ، وظهر هذا جلياً واضحاً في الاستعارات والسميات الصوفية التي كانوا يطرزون بها أشعارهم . على حين لم يكن بين شمراء العرب المجليين من وقف وقفة ولو بسيطة عند هذه التعاليم إذا استثنينا الشاعر المبدع شرف الدين عمر بن الفارض العربي المولد والشعر مادة وروحاً . وللعرب في تاريخ الصوفية الأدبي فارس آخر هو محي الدين بن العربي الأندلسي المولد في القرن الثاني عشر الذي أتى عصا الترحال في دمشق الفيحاء ، بعد أن زار في رحلته مصر والحجاز وبغداد والموصل وآسيا الصغرى ، وله مؤلفات تربو على المئتين والخمسين عدا ، وأشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم وبهما يعتبره البعض أعظم صوفي الإسلام

هذه صفحة موجزة في تاريخ الصوفية ونشأتها أود أن أختتمها بالثناء العاطر على الأستاذ العلامة نكلسون لما بذل من مجهود في تنقيح عن أسس هذه الطريقة ومعالها ، فأضاء لنا صفحة مشرقة في تاريخ هذا البحث الخطير الشأن . وعسى أن يقوم من بين علماء العربية من يتطوع للكتابة في هذا الأمر الجليل ، فالجمال مازال واسماً والفائدة جزيلة عامة إن شاء الله .

السلط — شرق الأردن سليمان فارس النابلسي